



بعد ثمانية سنوات من الموت والدمار وصنوف البؤس كافة، وبعد أن وصلت نسبة السوريين الذين يعيشون في حالة فقر إلى 85%， بحسب تقارير الأمم المتحدة، وبعد دمار أو تضرر حوالي ثلث المباني، ونصف المباني المدرسية والمستشفيات، بحسب تقارير البنك الدولي، وبعد وصول المجتمع السوري إلى حضيضٍ من الإنتاج الاقتصادي، وحضيض من الانقسام الطائفي، ومن الفلتان الأمني وانتشار الجريمة، وبعد أن أصبح السوري مشرداً ومنبوذاً في كل مكان، بما في ذلك داخل بلده، وبعد أن أصبحت سوريا ملعاً للدول الصغرى منها والكبرى، لا يتزدّ الأسد في القول: "ما أريد التأكيد عليه إنه لم تكن ممكنة حماية الوطن من السقوط في المحرقـة التي حضرت له، لوـلا الإرادة الشعبـية الواحدـة عبر مختلف أطياف وشـرائح المجتمعـ السوري". الوطن إذن، بعد هذا كله، لم "يسقط في المحرقـة". من الواضح أن الأسد يريد القول "حماـيـتي من السقوـط في المحرقـة"، السقوـط في المحرقـة في نظرـه لا يتعلـق بكلـ ما مرـ ويـمرـ علىـ سـورـيـة منـ مـآـسـ وـكـوارـثـ، إنهـ يـعنـيـ فقطـ تـفـكـيكـ نظامـ حـكـمـهـ.

في مكانٍ آخر من خطابـهـ، وفي معرضـ حـديثـهـ عنـ اللـجـنةـ الدـسـتـورـيـةـ، يـفـاجـئـناـ الأـسـدـ بـالـقـوـلـ إنـ هـنـاكـ منـ الشـعـبـ السـوـرـيـ منـ يـعـارـضـ الدـوـلـةـ، فـيـتـكـلـمـ عنـ "الـجـانـبـ الـآـخـرـ منـ الشـعـبـ السـوـرـيـ الذـيـ لاـ يـوـافـقـ عـلـىـ وجـهـةـ نـظـرـ الدـوـلـةـ"، لـكـيـ يـقـولـ إنـ الـثـلـثـ "الـمـعـارـضـ"ـ منـ لـجـنةـ صـيـاغـةـ الدـسـتـورـ المقـرـرـةـ لـاـ يـمـثـلـونـ هـذـاـ الجـانـبـ، وـهـمـ "طـرـفـ عـمـيلـ"ـ لـاـ أـكـثـرـ. نـحنـ لـاـ نـدـافـعـ عـنـ هـذـاـ الـطـرـفـ، وـسـوـرـيـونـ كـثـيـرـونـ لـاـ يـجـدـونـ فـيـ هـذـاـ الـطـرـفـ مـمـثـلـاـ لـهـمـ، وـيـدـرـكـونـ أـنـ مـؤـسـسـاتـ الـمـعـارـضـ السـوـرـيـةـ لـاـ تـمـلـكـ مـنـ أـمـرـهـ الـكـثـيـرـ، تـمـامـاـ كـمـاـ لـاـ يـمـلـكـ نـظـامـ الـأـسـدـ مـنـ أـمـرـهـ الـكـثـيـرـ، لـكـنـ لـاـ يـقـولـ لـنـاـ الـخـطـابـ كـيـفـ يـمـكـنـ، إذـنـ، تـمـثـيلـ "هـذـاـ الجـانـبـ"ـ مـنـ الشـعـبـ السـوـرـيـ الذـيـ لـاـ يـوـافـقـ عـلـىـ وجـهـةـ نـظـرـ الدـوـلـةـ؟ـ وـأـيـنـ هـوـ مـنـ يـمـثـلـهـ؟ـ وـهـلـ يـمـكـنـ، فـيـ دـوـلـةـ الـأـسـدـ، أـنـ يـوـجـدـ مـمـثـلـ لـجـانـبـ مـنـ الشـعـبـ السـوـرـيـ "لـاـ يـوـافـقـ عـلـىـ وجـهـةـ نـظـرـ الدـوـلـةـ"ـ، مـنـ دـوـنـ أـنـ يـكـونـ عـمـيلـ؟ـ

قد يستغرب المرء كيف يفسح منطق الأسد مكاناً لوجود "هذا الجانب من الشعب السوري"، ولكن القصد من قوله هذا لم يكن إقراراً بحقيقة وجود انقسام سياسي في المجتمع السوري، بل القصد هو تجريد المعارضين (هكذا بالجملة ومن دون تحديد ومن دون حتى ذكر المفردة المرندة نفسها) من أي تمثيل، تمهيداً لوصفهم عملاء. لا بأس، طبعي أن يكون هناك انتهازيون وفاسدون وعملاء في أي حركة سياسية، طبعي أن يكثر هؤلاء حين تعرّض الحركة السياسية المعارضة إلى آلة إيكار وإبادة سياسية وفيزيائية، كما شهدنا في سورية، طبعي أن تتوفر في صفوف هذه الحركة كل صنوف الفذارات السياسية. ولكن تماهي الحركة بهؤلاء الأشخاص يعني أنك ضد معنى الحركة أصلاً، ولست ضد الأشخاص القذرين فيها، بل يعني أنك أقرب إلى هؤلاء الذين يتبحرون لك، بقدارتهم السياسية، أن تستخدمهم وتعمّ صورتهم، لطمس معنى الحركة المعارضة بالجملة، يعني أخيراً أنك تهيء الوطن "المحرق" مستمرة.

يستنفر خطاب الأسد اللغة لاحتقار السوريين، والحط من قيمتهم، سواء من منهم في صف "الإرادة الواحدة" أو من منهم في الصف الآخر المرنول. لا يوفر الخطاب مفردة سيئة: "سماسرة، رخيصون، خونة، ازدراء، احتقار، غدر، غشن، نفاق، عميل، مرتفق، نفوس مريضة، حقد، جهل، فساد، قلة أخلاق، أنانية، ذل، هوان ..". أن تأتي هذه المفردات على لسان أعلى سلطة في النظام هذا يعيد التأكيد، لمن لا يزال بحاجة إلى تأكيد، على أنه لا انتمال للجرح السوري في استمرار نظام الأسد الذي لا يكفي عن زرع الشقاق في صفوف الشعب، والاستثمار في هذه الشروخ.

لدينا، في الداخل، "الفساد والتعدّي على حقوق الآخرين والأنانية والغش والأمور التي نعيشها جمِيعاً، وفي الخارج لدينا الخونة.. إلخ، ولكن هذا لا يمنع الأسد، مع ذلك، من القول إن "الانقسام الاجتماعي الحقيقي في سورية غير موجود"، أي إن الانقسام الذي جعل السوريين على ضفتين حربٍ مدمرة لم تنته (كما يصر الأسد بحق)، وستستمر إلى أجل غير معلوم، لا بل إنها أثبتت حروباً عديدة يعدها الأسد كما يلي: العسكري، والحضار، وإنترنت، والفساد، نقول إن الانقسام الذي ولد كل هذا الصراع هو، في نظر الأسد، زائف وغير موجود، لأنه لا يرى في الواقع إلا من هم في صفة، أي "الطرف الوطني" الموحد حول قيادته، والذي ينبغي له أن يشقي ويوجع من دون أن يشكوا، لكي لا يسقط الوطن في "المحرقة". أما من هم في غير صف الأسد، فهو لاء غير مرئيين، ولا ينبغي لحذفهم من الصورة أن يُزعج أحداً، لأن في حذفهم تطهير للوطن. هكذا إذن تكون الإرادة واحدة، لأننا لا نرى إلا إرادة من هم معنا.

يتقدّم الأسد خطوة أخرى في عرضه تصوره بما جرى في البلد خلال السنوات الماضية، فيقول: "الحرب كانت بينما نحن السوريين وبين الإرهاب حصاراً". "نحن السوريين" ضد "الإرهاب"، هذه هي معادلة الصراع في السنوات الماضية إذن. الأسد هنا يجمع كل المعارضة السورية بكل تلاوينها، ويضعها في خانة الإرهاب مجردة من الجنسية السورية، ليضعها مقابل "نحن السوريين". لا وجود لألوان سياسية في المعارضة، لا وجود لقمع سياسي متواصل ضد معارضين سوريين، لا وجود لاحتقار للسلطة والثروة، لا وجود للذل الذي وصل بالسوريين إلى حد طلب الموت بدلاً عنه. في نظر الأسد، لا يوجد معارضون سوريون ديموقراطيون علمانيون، حريصون على شعبهم، وكانوا يرون، منذ زمن بعيد، إن الأسد يقود البلد إلى "المحرقة"، ولا يوجد معارضون يعملون لإخراج وطنهم من المحنّة التي أوصله إليها نظام الأسد. ما يوجد هو فقط، وبكل بساطة، "نحن السوريين" ضد "الإرهاب".

كل من هو خارج (نحن) ليس إلا عميل ومرتفق وخائن.. إلخ، لكن الأسد لا يوفر هذه الـ"نحن" من التوبيخ، لأن "الحقيقة تقول إن هناك حرباً وإرهاباً وحصاراً، وهناك قلة أخلاق وأنانية وفساداً". ماذا لنا أن نفعل أمام شعبٍ تناهيه الخيانة والسمسرة والانتهازية والعملاء من جهة، والأنانية والفساد وقلة الأخلاق من جهة أخرى؟ لن نجد أمامنا سوى الحل الوحيد الذي يقتربه الأسد، وهو "إعادة إصلاح النفوس المريضة وتطهيرها من الحقد والجهل وزرع القيم والأخلاق فيها، وتنقيتها من شوائب الانهزامية وتشريبيها بالمفاهيم الوطنية" و"إعادة بناء العقول وإصلاح النفوس".

ليس اليوم هو مجال إصلاح النفوس، لأن "التحدي الأساسي الآن هو تأمين المواد"، كما يؤكد الأسد. الشعب جائع، وهناك نقص في الغاز والوقود وغيرها من المواد، ولا وقت الآن "للتربية الوطنية". الخطة إذن هي تكريس النفس لخوض الحروب الأربع، ثم بعد الانتصار (هل يمكن الانتصار بالنفوس المريضة والعقول التي تحتاج إلى إعادة بناء؟) سوف يتفرّغ الرئيس الصالح لإصلاح نفوس شعبه العاطل وعقوله.

المصادر:

العربي الجديد